

البضاعة والثمن

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

=====

يقاس رصيد الأمم بثرواتها ومصادر قوتها وتميزها كما يقاس بناتجها القومى والنواتج القومى هو محصلة عمل أبنائها وإنتاجهم . استطاعت دول فقيرة نسبيا فى ثرواتها الطبيعية من غزو أسواق العالم اعتمادا على رصيدها من الثروة البشرية . وقيمة الثروة البشرية هى فى قدرة أبنائها على الإنتاج المتميز والتصدير والمنافسة العالمية . وهذه الأمور لا تأتى اعتبارا بل هى نتيجة الخبرات التى هى ثمرة التدريب والمحاولات المتعددة . لم تصل هذه الدول إلى ما وصلت إليه إلا بالكد والجد وبالعمل وبالعطاء . كان عند هذه الشعوب إحساس جارف بأمتها . إذا لم تفعل ذلك فإنها تهلك Doomed كانت تتشد الرخاء وهو البضاعة التى تريد أن تحصل عليها ولكن لابد أن تدفع الثمن والثمن هو العمل والجد والتضحية والانضباط وقد أدركت أنها لابد أن تدفع الثمن قبل أن تحصل على البضاعة Pay the price before getting the merchandise إن الشعوب التى وصلت إلى التقدم تعبت كثيرا وهى الآن تجمع بين متع الحياة وتعبها بل إن متع الحياة فى نهاية الأسبوع مكافأة على تعب الأسبوع . نحن نريد أن نكون مثلهم بدون أن نتعب تعبهم . نريد مظاهر الغنى والرخاء والدعة ومتع نهاية الأسبوع ولكن لا نريد شقاء الأسبوع كله . شعوبنا العربية مصابة بداء الكسل والتراخى ولها منطق غريب فهى تريد أن تحصل على البضاعة دون أن تتعب دون أن تدفع الثمن . فقط أعطاه الله ثروات طبيعية وأموال طائلة تشتري بها كل شىء . ولكننا فى مصر لسنا دولة خليجية صحراؤنا مطبقة علينا . خانقة على واد ضيق ومع ذلك فقد استطاع المصريون عبر آلاف السنين من بناء حضارة يشهد لها العالم كله ولكننا الآن جيل جديد من المصريين لا يريد أن يتعب كثيرا ويريد أن يحصل على البضاعة بلا ثمن إن أمكن ذلك . رصيدها تاريخنا ونحن نعيش فى الماضى على حساب أجدادنا . أصبحت السياحة هى أهم مورد مالى لنا أما نحن فيكفينا أن نبيع منتجات خان الخليلى للسياح ومع ذلك فإن السياحة لا تكفى أن تجعل منا دولة غنية مهما تزايد عدد السياح ومهما اجتهدنا فى تقديم المغريات وبناء الفنادق والقرى السياحية . لا يمكن أن نعتمد على السياحة كمصدر أساسى لدخل الدولة . كما لا يمكن أن نكتفى بقناة السويس لنعيش عليها . لابد أن ننتج ولا بد أن نصدر ولا بد أن تكون منتجاتنا على مستوى جيد حتى نكسب السباق . العالم كله يتسابق على رعوس الأموال وعلى الأسواق . لا مجاملات ولا محسوبيات فى السوق العالمى . لم نثبت حتى الآن قدرات متميزة فى هذا السباق . نتمنى أن نكون من الدول المتقدمة . والدول المتقدمة تنتهج العلم نبراسا ونحن لا نريد أن نكون مثلهم فى الاهتمام بالعلم ومع ذلك

نريد أن نكون متقدمين . كيف ؟ لا يوجد طريق مختصر Short cut للتقدم . طريق التقدم هو بناء القوة البشرية القادرة المبدعة أو التي تمتلك القوة الذهنية Brain Power . ثروتنا البشرية عبء على الدولة . الدولة ملزمة بالتعليم والصحة والمرافق وغيرها وهذه الأوقاف المتزايدة تريد من يعولها . الدول التي تقدمت جعلت من البشر مصدر ثروة لأنها دربت الكل على العطاء . ما معنى أن يكون لدينا جيش من العاطلين لماذا علمناهم إذا ؟ ماذا استفادوا بخدمات الدولة المجانية إذا كانوا في الآخر بلا عمل وبلا أمل . كيف يمكن تحويل هذه الطاقة البشرية إلى طاقة إنتاجية . المشكلة في مصر أننا لم ندرب البشر على الإنتاج وعلى الاستفادة من التعليم . والمشكلة الأكبر أن ثقافة المجتمع لا تبني على المغامرة قال لي أحد الأساتذة اليهود فيما مضى أنه يرى أن العرب حاقدون على إسرائيل لأنها استطاعت أن تجعل من الصحراء جنة . وفي هذا طبعاً مغالطة لكن فيها شيء من الحقيقة . لأن إحساس الإسرائيليين المستمر بالخطر وعدم الاطمئنان إلى المستقبل جعلهم دائماً على أطراف أصابع أقدامهم On their toes فهم لا يستطيعون أن يطمئنون أو يرتاحوا بل إن هناك مقولة أن السلام الذي تحقق بين مصر وإسرائيل أتى بنتيجة سلبية على إسرائيل لأن خروج مصر من الصراع أعطى الإسرائيليين إحساساً بالأمن جعلهم يتراخون وظهرت نتيجة ذلك في هزيمتهم أمام حزب الله . الشعور بالخوف وعدم الأمان هو الذي يحرك الشعوب للعمل والتفاني في الإنتاج . ولكننا في مصر نستنشق من الهواء مخدراً جعل المصريين في حالة هدوء نفس غريبة تراخت النفوس وتراجعت الهمم وحل الكسل محل العمل ومع ذلك فإننا ننشد الرخاء ولكننا لا نريد أن نعمل من أجله . إن الرأسمالية العالمية والتي أصبحنا شئنا أو أبينا جزء منها تتبنى على فكرة أنه لا غذاء مجاناً No free lunch ومع ذلك فنحن نطلبه وليس لدينا العزيمة ولا الإرادة ولا الهممة أن ندفع الثمن .